نادية حرحش و٧أيام فى أمريكا

المرأة هى التى غدًا

ستصنع المستقبل وتقود العالم

المرأة ومحاربة التطرّف كان عنوان الرحلة التى دُعيت إليها مع ٢٤ امرأة من ٢٤ دولة شملت مصر، المغرب، الكويت، لبنان، كازاخستان، المالديف، السويد، النرويج، بريطانيا، إيطاليا، كوسوفو، البلقان، كرواتيا، باكستان، بلغاريا، بنجلاديش، سويسرا وغيرها. غنى التجربة حمل عدة جوانب لم تقتصر على العنوان أو الأماكن التى زرناها. كان أهم ما فيه هذه المجموعة التى اختلفت عما تعودت عليه من التجمعات النسوية فى السنوات السابقة. كنا كمرشحات سباق ملكة جمال العالم. كان منّا من يتلاءم شكلاً ومقاييس تلك المسابقات، ولكن ما كان لافتًا هو رؤية الجمال المبهر من خلال عقول النساء. فكل واحدة تحمل بين كتفيها وداخل هندامها المنتقاة بعناية عقلاً فائقَ الذكاء. كم تكون المرأة أجمل وأكثر إغراءً بجمال عقلها.

كل واحدة تبدو كالسهل الممتنع تتسابق بعناية على التأكد بأن مهمتها ورسالتها قد وصلت. فكانت المجموعة مزيجًا من النساء الفاعلات القائدات اللائى تم اختيارهن بعناية من قبل القنصليات الأمريكية المختلفة فى بلدانهن. لم يكن أى وجه متكرر لما دأبت عليه هكذا لقاءات من رائدات قرار ١٣٢٥، الذى أقرته الأمم المتحدة قبل ١٥ عامًا، وكان أهم إنجازات الحركة النسوية لما يتضمنه من توسع فى حقوق المرأة ومزايا واستحقاقات لم تكن موجودة من قبل.

إلا أنه قرار يشبه حال القرارات العربية، كثير من الكلام والتوقعات وقليل من النتائج والأفعال. خلّف وراءه أسماء صنعت أمجادًا لنفسها تحت اسم قضية المرأة. بدأت الرحلة من واشنطن، وتعرفنا على ما تقوم به أمريكا بحكومتها اليوم من وسائل مضادة للتطرف. مسألة باتت توحد العالم بشرقه وغربه. فداعش نجحت فى أن تكون بطلة الاجتماعات كالوحش فى أفلام الرعب.

فلبنان وحدوده المكشوفة ورهبة المتطرفين من داعش ووسائل ترغيبهم للشباب. والمغرب واندفاع بناته نحو الجهاد الذى لا يفهمه أهله. والكويت التى لا يُفهم موقفها، أهم مجاهدون فى إعلامها أم إرهابيون؟، وباكستان وبنجلاديش وإرهاب الدولة برداء الإسلاميين من المتطرفين. ومصر وما يحدث فيها من محاربة للتطرف بالداخل وعلى حدودها، والدنمارك والنرويج وإيطاليا ومشكلات اللاجئين إليها وعمليات احتوائهم، وبريطانيا وتجنيد النساء والشباب بداعش بطرق لا يُفهم أسبابُها، وفلسطين بين فكى الاحتلال والانقسام وتجنيد بعض الشباب إلى داعش ورفع راياتها بالمساجد. وبينما يمكن رصد أسباب سرعة التجنيد وسهولته إلى عدة عوامل تتمثل فى الاضطهاد والشعور بالظلم لدى الشباب المسلم فى البلدان الإسلامية، وراية الخلافة الموعودة التى يحلم بها المسلم العربى لإرجاع زمن معاوية وصلاح الدين فى ظل قيادات تستمر فى عدم الارتقاء إلى أدنى مستوى من أحلام وطموحات شعوبها. يبدو أن الإثارة والمغامرة هى من تحمل أبناء وبنات الغرب. فالمراهنة تذهب من أجل وعد بأن يصبح أحدهم زوج خليفة وأميرا مرتقبا، وطاهرة بزواج لا يقدمه لها الغرب الخالى من النخوة وعزة الرجال. فالمراهقة والمطلقة والأرملة ومن فاتها قطار الزواج صارت داعش لها السبيل إلى الاستقرار والسعادة.

المرأة هى العنوان فى إخماد فتيل نيران التطرّف وهى العنوان فى إشعاله. لأن التطرّف ومضاده يتربى بين أكناف أسرة تنشئها امرأة

والجهاد عنوان الشباب الذى يرتقى من تائهٍ خالٍ فاشلٍ إلى مجاهد ومقاتل وأمير وإن فتح الله عليه قد يكون الخليفة. قد تكون الإدارة الأمريكية حاولت عبثًا عدم الخوض فيما سببته وقادته من حروب أشعلت النيران فى العالم الإسلامى منذ القاعدة ووقوفًا اليوم بداعش وأخواتها من حركات متطرفة دموية.

يبدو أنها تنشغل وبحق بإخراج أبنائها وبناتها من فوهة بركان داعش الذى لا يزال يتفجر ويحرق فى طريقه الأخضر من الناس واليابس. بكل المشاهدات التى رأيناها هناك ابتداءً من وزارة الدولة والجمعيات الحكومية وغير الحكومية التى تعمل فى محاربة التطرّف سواءً عن طريق تقديم تحليل أو حلول أو مراقبة أو خدمات، كان الهدف الدائم هو محاولة رصد ما يجرى من تجنيد والسيطرة عليه. فالخطر المحيط بهم ليس له مقاس خاص، كالسرطان المتفشى داخل الجسد ما إن تتمكن منه بمكان حتى يحاصرك من مكان آخر. والطريقة الجليّة فى المعالجة كانت منذ اللحظة الأولى واستمرت لمرات فى جميع مؤسسات الدولة من مكتب المحافظ بنيويورك والشرطة والمؤسسات الخدماتية والإعلام المكتوب وصولاً بسان فرانسيسكو كرونيكلز هو «الاحتواء» و«التوحد» بالاتفاق على خطر واحد. لفت انتباهى مثلاً استخدام متكرر لكلمة «إرهابى» و«قتل» من قبل البعض بالمجموعة عند التكلم عن خطر المتطرفين ووسائل التخلص منهم. فى حين لم يستعمل الأمريكيون بكل مستوياتهم بالاجتماعات المختلفة كلمة «إرهابى» أو «قتل» للتخلص منهم. طبعًا هم لا يحتاجون إلى ذلك فحالنا فى البلدان العربية والإسلامية كالفخار الذى يكسِّر بعضه. إلا أننى لم أسمع اقتراحًا واحدًا من الجانب الأمريكى أو الأوروبى بالإشارة إلى قتلهم.

فالجميع عندهم فى مهمة تسمى «احتواء وإرجاع» يتناوب الجميع على القيام بها بمجاله. تعدت الاقتراحات من قبل المجموعة فكان التركيز على التعليم ونشر حملات توعوية مضادة والعمل على أبحاث علمية فى مجالات التطرّف ومحاربته وخلق برامج تساعد على عمل توازن اجتماعى وتحقيق العدالة من جملة المقترحات.

فقد يكون التركيز على إعطاء المرأة فرصًا حقيقية بالقيادة هو الأهم. ولن يكون هذا عن طريق الكوتة أو إجبار وضعها فى مشاريع، ولكن عن طريق الاستثمار الحقيقى فى تعليمها. فالمرأة إذا ما أعطيت فرص التعليم التى يأخذها الرجل من الخروج من الدوائر التعليمية المحلية وإفساح المجال لها لتفتح آفاقها الخاصة، سترجع إلى بلدها بمعايير لا تقل عن تلك التى تجعل الرجل فى مقدمة

الأعمال والمناصب المختلفة. والمرأة هذه هى الأم والأخت والزوجة والابنة. إذا صلح تعليمها، صلحت ثقافتها وقوى إيمانها فتعمر بيوتنا. ربما يحتاج العالم اليوم إلى أن يعكس اهتماماته فيما يسمى «تمكين» للمرأة و«تعليم» للرجل. فالمرأة منا تمكنت من خلال كل هذه البرامج حتى أصبحت تبنى من تمكينها حيطان فى غرف بيوتها عزلتها عن الواقع غير «الممكّن» للمجتمع الذكورى حولها.

فالرجل هو الذى يحتاج إلى عملية تمكين فى رؤية مختلفة لدوره ودور المرأة. فهو من يحتاج اليوم للتدريب والتمكين عن عدم مركزيته وكما وصفه نزار بأنه لا يقبل بدور غير أدوار البطولة. فتعليم الرجل أفاده هو وجعله يتمركز أكثر حول نفسه ومن أحل نفسه. خلقُ امرأةٍ متعلمة بنفس القدر الذى يسمح للرجل بالتعلم فيه من فرص للخروج واختيار التخصصات التى تتمناها وتشعر بأنها ترتقى إليها سيخلق مجتمعًا سليمًا وقويمًا. فالاستثمار بامرأة واحدة هو استثمار بأسرة ومجتمع كامل.

فالمرأة إذا ما انفتح العالم أمامها بالعلم تستطيع بحبها لعائلتها أن تمنع التطرّف وتمحوه. فحب الأم والزوجة والابنة والأخت للابن والزوج والأخ والأب هو فقط ما يعطى معنًى وجوديًا للحياة.

فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق. فبين حكومات متخبطة فى الشرق والغرب من العالم. القوة والسيطرة هى عنوان أجنداتهم وحروبهم. تعيش الشعوب فى تيهٍ ملىء بالتخبط بين مشكلات اجتماعية حقيقية وإعلام مكتوب وإلكترونى، أصبح التالى يتحكم فى رصد كل ما طُلب من أخبار ومعلومات من الصعب فرز ما يصدق منها وما هو من صنع الأطراف المختلفة فى أقطاب النزاعات.

فقد الإعلام المكتوب الكثير من ثقة الشعوب لأنه أصبح تلقائيًا يتكلم بصوت أو صدى الحكومات. فنعيش اليوم فى الصحافة ما يسمى بالرقابة الذاتية مما قلل من قمع الحكومات ورقابتها. يبقى الإعلام الإلكترونى بلا تحكم يدخل البيوت من كل الاتجاهات. وعليه تقف المرأة بوعيها محاربة له أو حاضنة له بانغلاقها وتبعيتها المطلوبة منها اجتماعيًا وتقليديًا. فالمرأة هى العنوان فى إخماد فتيل نيران التطرّف وهى العنوان فى إشعاله. لأن التطرّف ومضاده يتربى بين أكناف أسرة تنشئها امرأة.

المراهقة والمطلقة والأرملة ومن فاتها قطار الزواج صارت داعش لها السبيل إلى الاستقرار والسعادة